الفصل الثاني

الثوابت والمتغيرات في الثقافة العربية

أ.د. سامية عبد الرحمن(*)

كثر الحديث اليوم عن الثقافة، وحوار الثقافات، وثقافة التنمية، وتنمية الثقافة، والثقافة القومية، وثقافة العولمة. . . . . الخ .

والحديث عن الثقافة بوجه عام حديث متسع الأطراف، متعدد الجوانب.

وإذا كنا اليوم نعيش عصرا طغت علية ظواهر مكتسحة ترمى إلى طمس معالم الهوية الإنسانية، وتسعى إلى إبادة الخصوصيات التي تميز بين المجتمعات والشعوب متنكرة بذلك لكل ما يمت إلى الأصالة بصلة، وما يساهم في الحفاظ على تلك الخصوصيات والفوارق المميزة . . . . . ، فإن الحديث عن الثقافة العربية في هذا العصر يعد أمرا ضروريا، وذلك في ظل المتغيرات الدولية التي حدثت في العالم من ناحية، وبوصفها حصنا أخيرا في مواجهة التحديات الحضارية التي تواجه أمتنا العربية في المرحلة الراهنة.

نحن في حاجة ماسة إلى بناء خط الدفاع الأول عن الثقافة والهوية، وإذا كان كل شي يجرى استلابه اليوم من أوطان وثروات. . . . . الخ ، فإنه ليس بالإمكان أن نسترد ثقافتنا إذا جرى طمسها أو أن نستعيد هويتنا إذا نجحت محاولات شطب هذه الهوية، وقولبة الأمة العربية في قوالب لا ترتكز إلى جذور الماضي أو ترتبط بطموحات المستقبل.

ولا نظن أن الحفاظ على الهوية يعنى دعوة لجمود الهوية الثقافية التي بها الكثير من الثوابت التي لا تقبل المساس والتغير. متطلبات الحفاظ على الهوية تستوجب بالضرورة التمسك بالثوابت الفكرية والقيمية والتاريخية، ولكنها لا تستبعد إعادة النظر في متغيرات تتجدد وتستحدث حسب تطور المجتمع واحتياجاته. وإذا كانت عناصر الثبات تؤكد التواصل الذي يربط حاضرنا بماضينا، فإن عناصر التغير تؤكد المباينة التي تجعلنا نشعر أن يومنا يغاير أمسنا، وأن مستقبلنا يختلف عن حاضرنا.

(*) أستاذ الفلسفة ـ جامعة عين شمس.

وليست عناصر الثبات جامدة الجمود الذي يجعل منها كيانا سرمديا، ساكنة السكون الذي يحيلها إلى مطلقات أزلية متعالية على الزمان، إن وجودها نفسه تاريخي، لأنه محصلة لخبرة المجتمع المتوارثة عبر أزمنة وحقب متباينة، فهي لا تتصف بالثبات إلا من حيث هي محصلة خبرة متراكمة قابلة للزيادة والنقصان، ومن ثم قابلة للتغير والتحول. إذن طبيعة التفاعل بين عناصر الثبات وعناصر التغير هو ما يصنع الهوية الثقافة للأمة .

نحن أمة تتحدث لغة واحدة هي اللغة العربية، وتخضع لمنظومة قيمية وتقاليد تكاد تكون واحدة، فهي مكون من مكونان الهوية، ومن ثم يصعب القول أنه من أجل الثقافة ٠ العالمية أو العولمة ومكاسبها، أن نقبل بفرنجة اللغة العربية، أو أن نساير ثقافات وعادات وأعراف تتناقض مع خصوصية التراث الثقافي والحضاري للامة ٠

وهنا يجب أن نفرق بين شرعية الحديث عن إعادة تجديد هوية الثقافة العربية وتغذيتها بعناصر فعالة تتلاءم مع مقتضيات العصر الذي نعيشه بكل ما فيه من مستجدات علمية وفكرية واقتصادية واجتماعية وسياسية ، وبين الاستسلام لدعوات خارجية تطالبنا بمراجعة شاملة وتغيير جذري لمفردات هويتنا. وفى إطار التفرقة بين ما هو جائز وما هو محظور، بين عناصر التغير، وعناصر الثبات، يمكننا أن نقبل الانفتاح على الثقافات الأخرى بمنظور نقدي يسمح لنا بدراسة هذه الثقافات، والأخذ منها بما يناسبنا ولا يتعارض أو يتصادم مع جوهر ثقافتنا. وهذا التفاعل بين عناصر الثبات والتغير لا يجعل من الهوية الثقافية إفنوما ثابتا، بل يجعل من صورة هذه الهوية صورة دينامية متحولة في التاريخ.

إن ما يحدد هويتنا كثقافة عربية، ويوحدنا ضد تحديات ما يسمى بالثقافة العالمية، أو ما يسمى بـ "الثوابت" في الثقافة العربية، يمكن أن يندرج تحت ثلاثة محاور :

اللغة- التاريخ- منظومة القيم.

وتأتى أهمية اللغة كأساس للهوية الثقافية، والتواصل بين الثقافات على المستوى العربي والإسلامي والعالمي، وذلك بآليات الحوار الذي لا يتحقق، ولا يوجد وجودا فعليا إلا في التاريخ والمجتمع. لذلك فلا معنى للهوية بمعزل عن الكثرة والتعددية.

واللغة العربية هي اللغة القومية ولغة القرآن، وهى أقدم اللغات وأكثرها ارتباطا بالهوية، وفيها تفاعلت العروبة الإسلام أيما تفاعل. لذلك علينا حمايتها من التحديات المختلفة التي تواجهها (معرفية، فلسفية، علمية، إعلامية) ، ومواجهة اللغات التي يطرحها هذا العصر- عصر المعلوماتية والعولمة، وعصر ثقافة الهيمنة والسيطرة.

حوار الحضارات هو قبل كل شي ـ حوار يتبلور في الكلام أو الفكر، والخطوة الاولى في تحقيق هذا الحوار هي الاتفاق على لعنته .

وتتجلى مكانة الثقافة العربية من خلال دورها القومي في مسيرة الوعي التاريخي لامتنا العربية . فالثقافة العربية ـ إن جاز التعبير ـ هي حافظة الوعي القومي المرتبط بالتاريخ، وهي وسيلة للتفاعل والحوار عن طريق اللغة .

والإنسان هو الكائن الوحيد الذي يعدو دائما وراء ذاته، وقد خلقه الله وبه دافع يدفعه دائما إلى أن يتجاوز ـ بعقله ـ الواقع المباشر ، والى أن يعيش بوجدانه التاريخ ، فيهجر الحاضر ليعيش في الماضي تارة، ويتطلع إلى المستقبل تارة أخرى .

وإذا كان الماضي وسيلة للوعي التاريخي بذاتنا الحضارية، وأصلاً حقيقيا لهويتنا الذاتية، ففارق كبير بين الاهتمام به ، والاستغراق فيه ، والوقوع في أغلاله باعتباره المثل الأعلى الذي تتحرك فيه ما هيتنا الثقافية والحضارية في المستقبل . لا يجوز لنا أن نبعث الماضي بكل تفصيلاته ليكون صورة المستقبل المنشود ، لان التاريخ لا يكرر نفسه ، والماضي ليس صورة للمستقبل بحال من الأحوال .

إن حركة التاريخ ـ بتعبير هيجل ـ حركة جدلية دينامية وليست سكونية ، إنها حركة تتطلع إلى المستقبل . ويعتقد هيجل أن الحقيقة التاريخية لا تأوي في القبور، ويجب أن تحيا وتنمو حرة ، ولا قيمة في الوجود إلا للحياة . فالشعوب والدول يجب أن تكون في حركة مستمرة . ويشبه هيجل حالات السكون في تاريخ الحضارات الإنسانية بأنها حالات خمول وملل وقصور ذاتي يحيلنا إلى جماد . وكل شعب خامل يفقد طاقاته الخلاقة ، وتجف روحه وحياته .

وأخيرا فإن تاريخ الشعوب يجب أن يكون تاريخا للأخلاق والقيم . وتاريخنا الضارب في القدم يحمل منظومة من القيم التابعة من نسيج الخبرة الإنسانية ، وهذه القيم جزء لا يتجزأ من الشخصية العربية . ويأتي دور القيم كثوابت تؤكد هويتنا في مواجهة متغيرات العولمة، وانتهاك خصوصيتنا الثقافية .

وإذا كانت اللغة والتاريخ والقيم تشكل عناصر أساسية للحفاظ على الهوية ، فهذا لا يعنى أنها عناصر ثابتة لا تخضع للتطور بل هي في حالة تفاعل مستمر مع متغيرات الثقافة ، وتفاعل فيما بينها . فإذا كانت اللغة وعاء للفكر ، فان القيم هي الواقع أو التطبيق العملي لهذا الفكر . والتاريخ هو حياة هذا الواقع ، أو هو العلاقة الجدلية بين الفكر والواقع . فلا بد من احترام الواقع ، والإيمان الراسخ بأنه المعلم الأول للفكر . ومن حق الإنسان أن يغير

الواقع ، ويعيد تشكيل الحياة وذلك عن طرق العمل والفعل اللذين يغذيهما الفكر . هذا الإيمان نفسه بالدياليكتيك الحي بين الفكر والواقع من شانه أن يجعلنا نفهم العلاقة بين الإنسان والتاريخ على أنها علاقة تأثير وتأثر . . . تأثير من جانب الإنسان في التاريخ ، وتأثر الإنسان بأحداثه .

obeikandl.com